المحاضرة الأولى: مدخل إلى العمران الإسلامي

تمهيد:

انتشر الدين الإسلامي ليشمل الكثير من بقاع المعمورة، ومعه ظهرت أنماط معمارية تنسجم مع تعاليمه ورسالته، سواء من حيث الشكل أو الوظيفة، وتفاعلت مع محيطها المحلي والإقليمي وانصهرت كلها في بوتقه الإسلام لتصبح مراكز حضارية تشع بنورها على امتداد العالم الإسلامي.

1-مفهوم العمران الإسلامي.

العمران لغة من العَمارة أو العِمارة بمعنى عمارة الأرض (ابن منظور، ب ت، صفحة 280)، وهو نقيض الخراب، وهو ما يعمر به البلد ويحسن حاله، كالفلاحة والصناعة والتجارة وكثرة الأهالي، وحضارة وعمران، أي أعمال وتشييد وتمدن، والعمران مصدر من عمَّر الأرض يُعمرها عمَارة وعُمرانا (كالو، 2017، صفحة 51). ويقال عمَّر الإنسان الأرض عمارة، والمعمورة من عُمرت، والاسم والمصدر العمران (ابن فارس، 1979، صفحة 141).

ولم يرد لفظ العمران بالمعنى الصريح وإنما جاء ما يفيد معناه، كقوله تعالى: ((وعمروها أكثر مما عمروها))(الآية 9، سورة هود)، وفي قوله أيضا: ((وعمارة المسجد الحرام)) (الآية 19، سورة التوبة)، أما من الناحية الاصطلاحية فالعمران هو التساكن والتنازل في مصر، ومن العمران ما يكون بدويا كضواحي الجبال وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو عمران الأمصار والقرى والمدن، ويربطه ابن خلدون بالاجتماع في قوله: ((...الاجتماع الإنساني ضروري)) (ابن خلدون، ب ت، صفحة 58).

والعمران يعني أيضا الاستقرار في رقعة جغرافية بصفة مستمرة، وإقامة عليها البنيان وتأهيلها بالسكان (مهري، 2009، صفحة 19)، وارتبطت القرى والمدن بالعمران لكن تحت مسميات ومصطلحات خاصة، وسنتطرق إلى بعضها كما يلي:

1-1-الحاضرة: الحاضر خلاف البادي، وهو المقيم في المدن والقرى، والبادي هو المقيم في البادية، والحاضرة خلاف الادية، وهي المدن والقرى والأرياف، وسميت بذلك لأن أهلها حضر (ابن منظور، ب ت، صفحة 197).

وتطور مفهوم الحاضرة بتطور حياة السكان بها، والحاضرة والحوضرة مرتبطتان ببعضهما البعض، فالحوضرة هي مجموع المراحل التي تمر بها الحاضرة منذ نشأتها إلى غاية تطورها وامتدادها، حيث تضم المدن الواقعة في فلكها، وهناك المدينة الحاضرة التي تتميز بأنشطة معينة دون غيرها، وبهذا تكون المدينة الأم في الإقليم ونواته (بكاري، 2018، صفحة 14).

1-2-المدينة: المدينة لغة من مدَن المدينة تمدينا أي مصَرها، كما أنها تأتي من لفظة دين التي تعني العدل في اللغة الآرامية (الفيروز آبادي، 2008، صفحة 1512)، وهي المصر الجامع، والحصن يبنى في أصطمة الأرض، وجمعها مدن ومدائن (رضا، 1960، صفحة 294)، وهي كل مستوطنة يوجد بها منبر أي مسجد، ويذكر الأصطخري أنه بقلسطين على ضيق رقعتها نحو عشرين منبرا، وهذا يعني أن فلسطين طانت تضم عشرين مدينة (حوليات الانسانيات والعلوم الاجتماعية، 1980، صفحة 219).

ويرى ابن خلدون أن التحضر وسكن المدن ظاهرة اجتماعية حتمية يهدف إليها سكان البادية التواقين لحياة الدعة والهدوء والترف، وذلك عن طريق الهجرة (عبد الستار، 1990، الصفحات 43-44). وذلك في قوله: ((اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار)) (ابن خلدون، ب ت، صفحة 323).

1-3-المصر: لغة يقال فلان مصَر الأمصار تمصيرا بمعنى مدَن المدن (القزويني، 1984، صفحة 8)، والمصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود، ويقسم فيها الفيء والصدقات (ابن منظور، ب ت، صفحة 186)، وهو أيضا البلاد التي يقيم فيها السلطان، وتجتمع فيها الدواوين وتقلد فيها الأعمال، وتضاف إليها مدن الأقاليم التي يتألف منها القطر (المقدسي، 1991، صفحة 47). والأمصار نوعان:

1-3-1-مصر المزارع والسواد: وهو أثبت المصرين وأحسنهما، وأولاهما استيطانا نظرا لوجود مواده فيه، ومن شروطه أن يكون في وسط سواده، وبين جميع أطرافه، حتى تعتدل مواده منها، وتتساوى طرقه إليها، وهو موفور العمارة ما كان سواده عامرا (الماوردي، 1989، الصفحات 161-162).

1-3-2-مصر الفرص والتجارة: هو من كمال الإقليم وزينة الملك، لأنه مقصود بتحف البلاد، وطرف الأقاليم، فلا يعود فيه مطلوب ولا ينقطع عنه مجلوب، ومن شروطه أن يتوسط أمصار الريف، ويقرب من بلاد المتاجر، فلا يبعد على طالبه، ولا يسبق على قاصده، وأن يكون على جادة تسهل مسالكها، ويمكن نقل الأثقال فيها، إما في نهر أو على ظهر، وأن يكون مأمون السبل والطرق، خفيف الكلف، قليل الأثقال (الماوردي، 1989، صفحة 164).

2-البدايات الأولى للإعمار الإسلامي: كان العرب قبل الإسلام يغلب عليهم طابع التنقل وعدم الاستقرار، لذلك مارسوا التجارة أكثر من غيرها من النشاطات، لكن بعد مجيء الإسلام تغير أسلوب ونمط حياتهم وأصبحوا يميلون إلى الاستقرار مما جعلهم يشيدون المدن العديد من المدن التي ذاع صيتها آنذاك ومازالت معروفة إلى غاية اليوم.

2-1-المدينة المنورة: شجع الإسلام على إعمار الأرض، فكانت يثرب نقطة البداية في تاريخ العمارة الإسلامية، حيث حولها الرسول (ص) من مجرد تجمع سكني متفرق، إلى نموذج للإعمار، فاستحدث فيها وظائف جديدة لكي تتلائم مع كونها عاصمة للدولة الإسلامية الوليدة (عزب، 1997، صفحة 47).

وتحولت إلى مدينة بمفهوم حضاري واسع انسحب على تسميتها بالمدينة، فبعد الهجرة سعى الرسول (ص) إلى تحقيقي تغيير واضح، أساسه الدعوة إلى الإسلام، الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الإسلامي لحياة حضارية، تلازمت مع اهتمامه بالكيان المادي للمدينة، مما أدى إلى تكامل المراكز العمراني للمدينة تدريجيا (صبري، ب ت، صفحة 20).

2-1-1-تخطيط المدينة المنورة: تقع المدينة الجديدة على طريق الشام، وتمتاز بغزارة مياهها وخصوبة تربتها، مما أعطاها خصوصية تجارية وزراعية، وكانت نواة التغيير العمراني في تخطيطها هي بناء المسجد الجامع وسطها، وبنى الرسول (ص) منزله في الجهة الشرقية من منه، ثم شقت الطرق الرئيسية التي تصل المسجد بالأحياء، حيث أشارت الروايات التاريخية إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربا حتى جبل سلع، وطريق يخترق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار وصولا إلى قباء جنوبا، ومن قباء وجد طريق يتجه شمالا إلى البقيع، وهذه الطرق سعة كل منها سبعة أذرع، وتتفرع عنها شوارع ثانوية عرضها خمسة أذرع، تفضي إلى شوارع غير نافذة عرضها ثلاثة أذرع (عبد الستار، 1990، صفحة 45) (الهذلول، 1994، صفحة 30).

أما عن تخطيط المدين في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان فقد كان عرض شوارعها الرئيسية حوالي عشرة أذرع، وأخرى تبدأ تفريعاتها من المسجد النبوي باتساع ما بين خمسة إلى ستة اذرع.

2-1-2-المسجد نواة المدينة وقبها النابض: كان المسجد أول ما أمر وشارك الرسول (ص) ببنائه، وكان في البداية مكان يصلي فيه رجال من المسلمين، وكان في السابق مربذا لغلامين يتيمين من الأنصار هما سهل وسهيل، ولما سار الرسول (ص) فيه، قال له الغلامان: "نهبه لك يا رسول الله"، فأبى حتى ابتاعه منهاما بعشرة دنانير، وكان هذا المسجد مركزا للصلاة والعبادة، إضافة إلى كونه مركزا سياسية واجتماعيا وحضاريا، وملتقى علميا، وتبلورت حوله كل الأنشطة الاقتصادية (عزب، 1997، الصفحات 47-48).

ومنذ ذلك الوقت أضحت المنطقة المخصصة للمسجد تقع في قلب المدينة، وأخذ الرسول (ص) على عاتقه توزيع الأراضي وتوطين الناس في المدينة، وحسب يا قوت الحموي أنه لما قدم الرسول – صلى الله عليه وسلم- مهاجرا إلى المدينة أقطع للناس الدور والباع، فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخرة المسجد، وجعل لعبد الله وعتبة بن مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهما عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا، وجعل لطلحة بن عبيد الله دوره، ولأبي بكر الصديق موضع داره عند المسجد (الهذلول، 1994، الصفحات 27-28).

وعمل الرسول (ص) على صهر الروح القبيلية، بدعوته إلى التآخي في الإسلام، مؤكدا في نفس الوقت على رابطة التآخي بين ذوي الأرحام، بجمع عدد من البطون والعشائر في قبيلة وحدة، وفي إطار أشمل أكد على الرابطة العامة بين المسلمين، عن طريق توحيد عامة القبائل في تنظيم حربي واجتماعي وتحت راية واحدة، وأدى هذا التفاعل بين هذه الاتجاهات المتدرجة والمختلفة إلى خلق مجتمع موحد ومتماسك، بعيدا عن النزعة القبلية، وتربطه روابط قوية، تساعده على تحقيق القيم الإسلامية (عبد الستار، 1990، صفحة 45).

2-1-3-الأسواق بالمدينة المنورة: كان في المدينة أربعة أسواق في الجاهلية، منها السوق الذي اختاره الرسول (ص): "هذا سوقكم، فلا يضيق ولا يأخذ فيه خراج". وقد ظل على حاله دون مبان، وكان الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (41-60هـ)، أول من أقام بناء فيه، ويتضح أن الهدف من نقل السوق من بقيع الزبير إلى موضعه الحالي هو رغبة الرسول (ص) في تقريبه من المسجد (الهذلول، 1994، صفحة 30).

2-1-4-تحصين المدينة المنورة: قام الرسول (ص) بتحصين المدينة من الجهة الشمالية، قبل قدوم الأحزاب إليها، لأنها لو بلغت أسوار المدينة بغتة لكان ذلك أعظم خطر يهدد كيان الدولة الإسلامية الفتية، وأشار عليه أيضا سلمان الفارسي بحفر الخندق على كول 1200 ذراع، وشارك في حفره ثلاثة آلاف مسلم، كما حصنت جدران المنازل القريبة من الخندق، والتي تفصلها عن العدو مسافة قصيرة، كما اتخذ لجنده معسكرات خارج المدينة، هي معسكر الجرف، ومعسكر أسامة ابن زيد (عزب، 1997، الصفحات 57-58).

2-1-5-العلاج والتطبيب بالمدينة المنورة: وسن الرسول (ص) إقامة مقار للعلاج والتطبيب، فبعد رجوعه من غزوة الخندق وضع خيمة في المسجد للتداوي، وتأسى به الحكام المسلمون بعده، فبنوا البيمارستانات التي توفر العلاج لأهل المدينة والوافدين إليها، وأوقفوا عليها الكثير من العقارات والأموال (عبد الستار، 1990، صفحة 53).

- قائمة المصادر والمراجع:

- .(1980)*حوليات الانسانيات والعلوم الاجتماعية، ج2. جامعة قطر.*
- أبو الحسن علي بن محمد الماوردي الماوردي. (1989). *الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق*
- *أحمد مبارك البغدادي* (الإصدار 3). الكويت: مكتبة دار ابن قتيبة.
- أبو الفضل جمال الدين ابن منظور. (ب ت). *لسان العرب* (الإصدار دار صادر، المجلد 4).
- أبو عبد الله زكريا القزويني. (1984). *آثار البلاد وأخبار العباد.* بيروت: دار صادر.
- أحمد ابن فارس. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (المجلد 4). (تحقيق: هارون عبد السلام محمد) دار الفكر.
- أحمد رضا. (1960). *معجم متن اللغة* (المجلد 5). لبنان: دار مكتبة الحياة.
- خليف مصطفى غرايبية. (2016). النسيج العمراني للمدينة العربية الإسلامية من خلال رحلة ابن جبير. *مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، 34*(2)، الصفحات 877-889.
- زينب بكاري. (2018). المراكز العمرانية في الغرب الاسلامي -مدينة سجلماسة 14 هـ - 597 هـ-. *مذكرة ماستر* . جامعة محمد خيضر بسكرة.
- صالح بن علي الهذلول. (1994). *المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية* (الإصدار 1). السعودية: دار السهن.
- عبد الرحمن ابن خلدون. (ب ت). *المقدمة.* المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطبع والنشر.
- فطيمة مهري. (2009). مدينة تيهرت الرستمية -دراسة تاريخية-. *رسالة ماجستير*. جامعة تلمسان.
- مجد الدين الفيروز آبادي. (2008). *القاموس المحيط.* (تحقيق: أنس الشامي، المترجمون) القاهرة: دار الحديث.
- محمد بن أحمد المقدسي. (1991). *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (الإصدار 3). القاهرة: مكتبة مدبولي.
- محمد عبد الستار. (1990). *المدينة الاسلامية، عالم المعرفة.* الكويت.
- محمد محمود كالو. (2017). فلسفة العمران الحضاري من منظور حضاري. *مجلة مقاربات*(1).

- محمد مصطفى عزب. (1997). *تخطيط وعمارة المدن الاسلامية*. قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ميادة عبد الملك محمد صبري. (ب ت). تخطيط وعمارة المدينة الاسلامية: مدينة دمشق القديمة نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنطور الإسلامي. *مجلة كلية التربية*(11).